النثر الجاهلي والأموي

تمهيد:

لم يكن حظ النثر عند الجاهليين كحظ الشعر – وكما رأينا – أنه قد أخذ فيهم مكانا سويا وعرف فيهم بالشرف والرفعة والحظ الوافر فقد كان لسانهم وبغيتهم حتى تنازعت فيه القبائل وتسابقت إليه الأماني أما النثر فلم يأخذ من منطلق ما حصلنا عليه من إنتاجهم حقه في الحضور والتأريخ .

ولا يمكن لأي دارس لعصر الجاهلية أن ينكر وجوده التاريخي بينهم وهو الوجود الذي تقره السليقة الصافية وإنما كان اختلاف المؤرخين في قيمته ومستوى وجوده وتأثيره في حياتهم بمختلف أركانها (سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ودينيا) ولذلك كان اختلاف أولئك العلماء مرده إلى قيمة المنتوج النثري .

فقد ذهب الباحث "جيب" إلى أنه لا يعقل وجود آثار نثرية للجاهليين و لم يبق لها أثر أو ذكر، معتبرا ما يُؤثر منها إنما هو حادث تحت وطأة التصحيف ويرى بأنها موروث لا يستند أصحابه على براهين مقنعة ويعتقد أن النقوش والكتابات التي عُثر عليها في مملكة الحيرة لا تقوم دليلا قويا على حقيقة نسبة تلك الآثار ولا تقدم دليلا على وجود النثر في الجاهلية .

ويُخضع نظرته تلك إلى أن النثر لغة العقل والتفكير ولا تظهر في أمة إلا إذا بلغت درجة علوها في المدنية والحضارة، البدو «مدعوون إلى تنمية الميل للفصاحة فان اللغة العربية أداة قوية وغنية بالأصوات التي تدفع إلى التماس الأنغام الإيقاعية والجمل القصيرة أو على العكس إلى الإطناب الذي يزيد حشو الكلام من قيمته كما أن حياة الصحراء

تساعد على نمو الموهبة الخطابية»[1]، وهذه لا تتحقق إلا بالاستقرار والأمة العربية امة عاطفة وخيال وما عرف عنهم من بداوة وترحال يجعلهم من أبعد الناس عن إنتاج نثر يتصف بالفنية والإتقان.

هذه رؤية أولئك المستشرقين الذين أرادوا إخضاع الفكر والإبداع للنظرية والتطبيق من دون التعامل مع واقع المنتج العربي النثري وقد سار على موقف "جيب" كثير من المستشرقين الغربيين وتلامذتهم من أبناء الأمة العربية كما وجدنا في موقف عميد الأدب العربي طه حسين.

أما المؤرخون العرب فيرون أن الجاهلي عرف النثر الطبيعي وأن المنتج فيه إنما غلبت عليه السليقة والطبيعة وعلى قلته قياسا بالشعر لا يمكن لأحد أن ينكر وجوده وما دفع بالباحث "كارلو نالينو" إلى الاعتراف بان العرب في الجاهلية لم يخرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطوعات ويذكر أن النضر بن الحارث بن كلدة أتى الحيرة واخذ من أهلها أخبار العجم ثم رجع إلى مكة وعلّم سكانها ضرب العود والغناء .

لقد اعتبر علماء العرب أن الفنون النثرية عرفتها الجاهلية ومارستها انطلاقا من طبيعة الأعراف والممارسات اليومية المعاشة «ولم يخرجوا في النثر عن قدر الإنشاء القصير والمقطوعات»[2]، وقد استدعت تلك حضور عديد مظاهر النثر على غرار الخطابة والسير والتراجم والقص والأمثال والحكم والوصية إلا أنها لم تنل حظها من الوجود والحضور نظرا لهيمنة الشعر .

«والذي يتراءى لنا هو أن الجاهليين عرفوا النثر ودونوا بعضه لنفس الأساليب التي دعتهم لتدوين بعض الشعر ولكن ذلك النثر حظه من الحفظ اقل من حظ الشعر لصعوبة

(1). حنا الفاخوري: الجديد في الأدب العربي، ج5، منشورات مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ط5، 1962، ص166.
(2). المرجع نفسه، ص167.

روايته ثم انه كان أكثر تعرضا للتحريف والنحل بسبب صعوبة روايته وسهولة تحريفه والإضافة إليه»[1].

رواية النثر القديم:

لم يحظ النثر الجاهلي بالعناية المناسبة في ظل الانشغال بالشعر وفي ظل مجموعة من العوامل المانعة من ظهوره لعل من أهمها يسر الحفظ وغياب العوامل المساعدة في ذلك خاصة الوزن والإيقاع المساعد على ذلك وهذا لأن الفرد يعتمد على السماع والحفظ والنثر لطوله وعدم ضبطه في قالب إيقاعي يجعله أقرب للنسيان منه للحفظ .

وبذلك تعاطوا ما يقرب منه وقد استحدثوا فيه ما يشبه تلك الوسائل بعد أن تعاملوا مع خطابة وقصص وسجع كهان في صورة ممارسة قد طبعوها ببعض آلية الإيقاع كالسجع و الفواصل الموسيقية .

ولما ظهر الإسلام في ربوع البلاد العربية وتوسع نطاق الحكم وتنوع بتعقد مصالح الدولة «أصبح النثر وسيلة تعبير في العلاقات القائمة بين الحكام والمحكومين والرؤساء والمرؤوسين ولذلك تلون بجميع ألوان الحياة الجديدة فكان خطابة وكان كتابة وكان رسائل وعهودا كما كان أخيرا قصصا ومناظرات وتوقيعات والجدير بالذكر أن هذا الأدب النثري كان في مرحلته الإسلامية الأولى ربيب الخلفاء والأمراء والولاة يستعملونه لأحكام ما بينهم وبين الناس من صلات وكان في أسلوبه التعبيري امتدادا للنثر الجاهلي واحتذاء للقرآن ينبت على أصالة عربية في نزعة إيجازية وتوجيه اجتماعي ... وتقرأ هذا الأدب فتحس الانسياب والتدفق ونشهد كأنما نجري من دفقة الماء في مجرى سهل ... لقد كان الأدب العربي في هذا الدور أدب أداء وكان النثر أشد حرصا على التعبير لم يكن إذن أدب

(1). حنا الفاخوري: الجديد في الأدب العربي، ص167.

تطغى عليه فنية مصطنعة وإنما كان هناك هذا التفنن الطبيعي الهادئ الذي لا نحس معه جهد الأديب ولا اعتصار قواه ... ومن هنا استطعنا أن نقول إنه أدب مطبوع»[1].

وكان الأدب إلى ذلك « غاية اجتماعية وغرضا أصيلا في حياة الجماعة تتخذ منه سبيلها إلى تأييد دعوتها وتأكيد ذاتها وتأدية أغراضها الكبرى... وكان الخلفاء والقواد والولاة هم أعلام هذا النثر الجديد ومن الواضح أن الموضوعات التي كان يدور عليها أدب هؤلاء الخلفاء كان من صميم الحياة الاجتماعية والسياسية للجماعة الإسلامية الجديدة وكان هذا الأدب تعبيرا عنها وتصويرا لمثلها وحثا على غاياتها ودفعا للناس في طريقها المستقيم»[2]،

ثم كان العهد الأموي وأصبحت طباع الناس فيه ونفسياتهم « بحاجة إلى شرح وتفصيل ولاسيما وأنهم خالطوا الأعاجم ولاسيما أن الأعاجم أنفسهم قد اخذوا بالدين الجديد كما اخذوا باللغة العربية وهكذا من امتداد سلطان العرب وامتزاجهم بغيرهم من الأمم الراقية في الحضارة ومن أخذهم بقسط وافر من التحضر والثقافة وتنظيم حكومتهم وتعدد دواوينهم وصناعتهم وامتداد تفكيرهم إنهم تضافروا مع الموالى مستعينين بما لهؤلاء من أساليب في لغاتهم ووجوه أداء وتعبير فضموها إلى أساليب العرب ووجوه أدائهم ووجهوا النثر العربي توجيها جديدا هو التوجيه التفصيلي يحفزهم في عملهم ما كان للدولة من حاجة إلى تفصيل الرسائل إيضاح العهود فوسعوا نطاق النثر وأخضعوه لكل الأفكار والمعاني في مختلف أجزائها وترابط عناصرها وهيؤوه للتصنيف بجميع أنواعه»[3].

(1). حنا الفاخوري: الجديد في الأدب العربي، ص260.

(2).المرجع نفسه، ص261.

(3).المرجع نفسه، ص262.

أنواع النثر التي عرفت في الجاهلي والأموي:

عرف اللسان العربي ممارسة بعض مظاهر النثر وذلك بعد أن اصطفى الشعر ألسنته الحاكية لموضوعه والطاقات التي يمكنها حمل رسالته وترك لبقية الممارسات اللغوية بمناسباتها أشخاصا اضطلعوا بمهامها ومن أشهر تلك الأنواع النثرية التي عرفها العربي في الجاهلية ما يلي :

الخطابة: فن نثري مارسه العربي منذ الجاهلية لدوافع عديدة وأسباب مختلفة عرف تطورا في التعامل معه وانتشر أكثر في العصر الإسلامي حتى لقب بالعصر الذهبي للخطابة وفيه تحددت ملامح هذا الفن بصورة واضحة وملامح كاملة كما سنلاحظه فيما بعد .

الوصية: هي سلوك عفوي استدعته الفطرة والطوية الإنسانية فبات بؤرة اهتمام العرب في حياتهم الجاهلية، ونظرا لجمالية ما تحويه الوصايا شكلا ومضمونا عده الدارسون نوعا من بديع ألوان «الأدب غايته التوجيه والإرشاد والحث على اكتساب المحامد أو التبصير بحسن السياسة او الدعوة إلى مكارم الأخلاق»[1]، وتتمثل في «خلاصة موجزة عن حياة المرء في شؤونه وشجونه، وآخر ما يقدمه إلى أبنائه وذويه في حياته أو بنهايتها، بعد أن اختبر الحياة بكل ما فيها من حلو ومر»[2]،

الأمثال والحكم: وهي مظاهر من الممارسة الفردية انتشرت في الجاهلية والإسلام تشمل قواعد وممارسات اجتماعية تصلح قواعد للتعامل البشري أو مواعظ تستهوي العقول وتقنع الأفهام تحمل المعنى في صورة موجزة تتقبل محتوياتها الأفئدة وتنطلق من مثيرات مختلفة وتنتشر بين فئات المجتمع عامته و خاصته .

---

(1).لطيف محمد العكام، أساليب النثر الفني، مطبعة الآداب، النجف، العراق، د.ط، 1974، ص105.

(2).حسن الحاج حسين، أدب العرب في عصر الجاهلية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط3، 1997، ص271.

السرد والقص: من الفنون العفوية التي مارسها العرب منذ الجاهلية وزادت مع تعاقب العصور الأولى توسعا في الممارسة وإدراكا لما تحمله من قيم ودلالات فبعد أن كان الأمر قصا في الجاهلية للإمتاع والمؤانسة أصبح ممارسة فنية بأبعادها الواعية بعد ذلك خاصة من خلال القصص المترجمة .

فن الرسائل: فن قديم كان للعرب فيه نصيب من الحضور وكان وجوده في تاريخهم منذ الجاهلية إلا أنه عرف اتساعا وتطورا وتميزا في العصرين الأموي والعباسي حتى تعددت أنواعه واستقلت فكان منها (الرسائل الديوانية والاخوانية والسياسية والأدبية) وقد عرفت انتشارا بين المشرق والمغرب والأندلس) .

وسيتم التفصيل في هذه المواضيع كل في حينه وأوانه من حصص هذا المقياس بتتبع مراحل تطورها وآلياتها الفنية و أهم أنواعها و العوامل المؤثرة في كل ذلك .